

# مبادئ أساسية لفهم القرآن

تأليف

أبو الأعلى المودودي

منبر  
التوجيه والإصلاح

## المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد:

لقد جاء القرآن الكريم لهداية النوع البشري بأجمعه، هذا ما أجمعت عليه الأمة الإسلامية، إلا أنه قيل: إن الدارس للقرآن الكريم يرى بأنه لا يخاطب إلا من وجد من العرب حين نزوله، وإذا كان يدير وجهه أحياناً إلى كافة الناس، فإن معظم ما يقول يرجع إلى ما يختص بذوق العرب وحدهم وبيئتهم وتاريخهم وتقاليدهم.

والإنسان حين يرى ذلك يبدأ يتساءل: إن كان الكتاب الذي أنزل لهداية كافة البشر، فلماذا يعنى عناية كبيرة بعناصر وقتية ومحلية وقومية؟ بل ربما يقع بعض الذين يجهلون حقيقة الأمر في شك ويقولون: ربّما نزل هذا الكتاب لاستصلاح من يعاصره من العرب ثم حمل فيما بعد ما لا يحتمله من دعوة عالمية وهداية لكافة الناس إلى الأبد.

لهذا أجاب أستاذنا العلامة حول هذه النقاط وغيرها بكتابه "مبادئ أساسية لفهم القرآن"، بأن الخصائص الأساسية التي تميز النظام القومي من النظام العالمي، والنظام المؤقت من النظام الخالد، هي أن النظام القومي إمّا أن يدعو إلى تفضيل شعب على غيره ويطالب له بحقوق ومميزات خاصة، وإمّا أن يؤمن بمبادئ ونظريات لا تستطيع أن تربع وتزدهر في الشعوب الأخرى، وعلى العكس من ذلك فإن النظام العالمي يؤمن بالمساواة بين الناس ويعطي الجميع حقوقهم بدرجة متساوية، وتكون مبادئه علمية الصبغة، علمية الأهداف والمثل. ثم إن النظام المؤقت يُنشئ بناءه على قواعد تفقد قابليتها للعمل بمرور الأيام، بينما النظام الخالد تنطبق مبادئه على جميع الظروف المتطورة.

لذلك فالقرآن الكريم هو نظام متكامل خالده علمي الصبغة والأهداف والمثل، أنزله الله تعالى لهداية البشر كافة بلسان عربي مبين.

## الناشر

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ}،  
والصلاة والسلام على خاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد؛

## أسلوب الوحي وأسلوب البتشر في الكتابة

إن الكتب التي ندرسها عامة نجد أن جميع ما فيها من معلومات وأفكار ودلائل يدور حول موضوع بعينه، بأسلوب تألفي وبصورة منسجمة. ولأجل ذلك فالدارس الذي ليس له عهد بالقرآن، إذا أراد أن يدرسه أول مرة في حياته فإنما يتناوله وهو على ظن أنه باعتباره "كتاباً" سيكون على غرار عامة الكتب التي تعود قراءتها، قد حدد موضوعه المنشود، ثم قسم هذا الموضوع إلى أبواب وفصول. وكذلك يظن أن هذا الكتاب قد تناول كل شعبة من شعب الحياة الإنسانية على وجه الاستقلال بالبحث والعرض ليسرد ما يتعلق بها من أحكام وتعاليم بترتيب متسلسل. إلا أن الدارس إذا بدأ يتصفح هذا الكتاب يفاجأ بعكس ما كان يتوقعه، فيجد أسلوباً لم يألفه من قبل، إذ أنه يرى فيه المسائل العقائدية والتعاليم الخلقية، والأحكام الشرعية، والدعوة والنصيحة، والعبرة والنقد، والزجر والتخويف والترغيب، والحجج والشواهد، والقصص التاريخية، والإشارات إلى آيات الله في الكون. كل ذلك يتكرر بيانه بين حين وحين، ويبدأ ويُعاد بوجوه متباينة وأساليب متنوعة. كما أنه بينما يطرق موضوعاً فإذا به يولي وجهه شطر موضوع ثان وثالث. بل يكون الأمر أغرب من ذلك، حين يبتدئ موضوع ثم يتخلله موضوع آخر بغتة. كما يتبدل المخاطب والمتكلم بين حين وآخر، وتوجه وجهة المحاوراة إلى جهات مختلفة مرة بعد أخرى.

أما تقسيم المواضيع والمباحث إلى أبواب وفصول فلا عين له ولا أثر.. وإذا نوقش فيه التاريخ لم يناقش على الأسلوب السائد لكتابة التاريخ. وإذا سيقنت البحوث حول الفلسفة وما يتصل بأمور ما وراء الطبيعة، لم تسبق في مصطلحات تخصص ببحوث الفلسفة والمنطق. وإذا ذكر الإنسان وما في العالم من موجودات لم يذكر على منهج للعلوم الطبيعية. وإذا تطرق الموضوع إلى شؤون المدنية أو السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع لم يسلك مسالك علم الاجتماع في البحث والتمحيص. وإذا أتى على ذكر من الأحكام

القانونية وأصول التشريع لم يأت بصياغة يعتادها أصحاب التشريع وعلماء التقنين في هذا المجال. وإذا عرض تعاليمه في الأخلاق وإستقامة السلوك رأيته يختار لها النمط الذي يغير سائر ما كُتِبَ ودوّن في هذا الباب.

إن الدارس إذا وجد هذا وأمثاله على غير ما ألفه من أساليب الكتابة وأنماط البيان، وعكس ما تعودّه من مناهج التعبير تأخذه الدهشة ويبدأ يستشعر أن هذا الكتاب ينقصه الترتيب ويعوزه التنسيق. ويشكّل من أوله إلى آخره مجموعة من شذور متناثرة وقطع مبعثرة جُمعت في عبارات متسلسلة وحلقات متماسكة.

أما الدارس الذي لم يؤمن بهذا الكتاب، ولا يريد من دراسته إلا إثارة الشبهات، فهو يجد في فقدان الترتيب والتنسيق متسعاً لإثارة الاعتراضات المنوعة حول الكتاب. وأما المؤمن به والخاضع له فتتجاذبه المواقف والأطوار.

فمرة؛ يغمض نظره عن المطالب خلال دراسته. وأخرى يطمئن قلبه بتفسيرات عديدة لانعدام التناسق الظاهري.

وثالثة؛ يأتي بنتائج غريبة لمحاولته إيجاد وجوه للتناسق وذلك باجتهاد شخصي متكلف.

ورابعة؛ يستسلم لفكرة "شذور متناثرة" فتصبح كل آية من آياته معزولة عن السياق العام. وتعود مسرحاً لابتكار المعاني التي تخالف ما يريده العزيز الحكيم.

## معلومات أولية ضرورية

ولكي تتحقق دراسة جديدة لكتاب من الكتب، من الضروري جداً أن يكون الدارس قبل كل شيء على معرفة بموضوع الكتاب، وعلى علم مسبق بمقاصده وغايته المتوخاة والبحث الرئيسي فيه، وعلى اطلاع بطرائق أسلوبه، وعلى خبرة بمصطلحات لغته ونمطه الخاص في التعبير وأن لا يغيب عن نظره الأوضاع والملابسات التي تكمن وراء ألفاظه ونصوصه.

إن عامة الكتب التي ندرسها نجد فيها الجوانب التي أشرت إليها بكل سهولة، ولذلك لا نناقى صعوبة في استكناه أسرارها وبلوغ مغزاها. ولكننا لا نعثر عليها في القرآن بالشكل الذي تعودناه في غيره من الكتب، ولذلك إذا بدأ يدرسه أحد منا كعامّة الكتب فلن يستطيع التعرف في موضوعه وغايته وبجته الرئيسي، وسيستغرب أسلوب بيانه وطراز تعبيره، ويغرب عن نظره الملابسات الكامنة وراء ألفاظه في معظم المواضع.

ونتيجة لذلك فإنه يحرم من التوصل إلى روح كلام الله، ورغم استفادته قليلاً أو كثيراً من لآئى الحكم القرآنية المشرقة المتناثرة. وبالتالي يضطر إلى الاكتفاء بحفنة من حكم مبعثرة، وإلى اقتطاف قبضة من زهور متناثرة بدلاً من أن يلم بعلم الكتاب ويطول فيه بآله. بل إن بعض الناس الذين يقعون في شبهات وأخطاء بعد دراسة القرآن، يُعزى سبب ضلالهم إلى أنهم قرأوا القرآن دون سابق إلمام بالقواعد اللازمة لفهمه فصادفوا المباحث المختلفة المتنوعة متناثرة في صفحاته، ولم يظهر لهم مغزى كثير من آياته، ورأوا العديد من الآيات كأنها جواهر تتلألأ بنور من الحكمة الربانية، ولكنها فيما يبدو غير منسجمة مع سياق العبارة السابقة واللاحقة. وكثيراً ما قذفهم جهلهم بأساليب القرآن التعبيرية، وأنماطه البيانية إلى معان غير مقصودة. كما وقعوا في ضروب من سوء الفهم لكثير من الآيات لأنهم ما عرفوا أسباب نزولها.

القرآن من أي أنواع الكتب؟ وما هي كيفية نزوله؟ وما هو سر ترتيبه؟ وما هو الموضوع الذي يدور حوله كل نقاشه؟ وما هي الغاية التي يتوخاها من بحثه؟ وما هو البحث الرئيسي الذي يحوم حوله جميع ما فيه من مباحث منوعة ومواضيع مختلفة؟ وأي لون من الاستدلال وأي نمط من البيان اختاره للتعبير عما يهدف إليه.

هذه وأمثالها من الأسئلة المهمة إذا وقف الإنسان على الردود عليها في مطلع الأمر فإنه يستطيع أن يتفادى كثيراً من المخاطر والمزالق وهو بصدد دراسة القرآن. كما

تتوسع في وجهه سبل فهمه وتدبره. ومما لا خلاف فيه أن الذي يريد في القرآن الترتيب التأليفي المتداول ثم يتخبط في صفحاته خبط عشواء إذا لم يبلغ ما يريد، فإن مبعث تخبطه ومثار حيرته ليس إلا أنه لم يتعلم ما لدراسة القرآن وفهمه من أصول وقواعد ولأنه بدأ يطالع القرآن ظناً منه أنه يطالع "كتاباً" موضوعه "الدين" ويكون في تصوره "للكتاب" و "للدين" على ما يكون في أذهان عامة الناس من تصور "للدين" و "للكتاب" بيد أنه حين يواجه في هذا الكتاب ما يختلف عن تصوره الذهني يجد نفسه لا تأنس إليه. ويظل يتيه بين دفتي الكتاب لعجزه عن معرفة نقطة الانطلاق في بحثه. ويكون مثله في ذلك كمثل التريل الغريب الذي يهيم على وجهه في دروب مدينة كبيرة. ويمكن أن يتفادى هذا الضياع لو أخبر مقدماً بأن الكتاب الذي يريد دراسته هو نسيج وحده في عالم التأليف. وتم "تأليفه" على نمط لم يتم عليه تأليف الكتب الأخرى. كما أنه فذ فريد باعتبار موضوعه وبحثه وترتيبه.

فالقالب العالم للكتاب كما تتصوره نتيجة دراستك للكتب والمؤلفات حتى اليوم لا يسعفك في تفهم هذا الكتاب أبداً، بل يثير الحواجز دون طريقك. وإذا أحببت أن تفهمه، عليك أن تبعد عن ذهنك كل ما أثبت فيه من تصورات وقياسات، وأن تدرك ما لهذا الكتاب من خصائص بدیعة ومزايا رائعة.

## أصل القرآن

يجب على قارئ القرآن أن يعرف قبل كل شيء "أصل" القرآن، سواء آمن به أو لم يؤمن به. لأنه ما دام يريد فهم هذا الكتاب فلا بد له أن يقبل ابتداء أصله كما ورد فيه وكما بيّنه الذي أنزل عليه هذا الكتاب وهو رسول الله محمد ﷺ.

### ويمكن أن يتضح أصل القرآن في النقاط الآتية:

(١) إن الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون ومالكة وحاكمه، خلق الإنسان في جزء يسمى بـ "الكوكب الأرضي" من أجزاء مملكته التي لا نهاية لها، وأودعه قوى العالم والتفكير والإدراك، وأهمه تمييز الخبيث من الطيب، وأعطاه حرية في الإدارة والاختيار، ومنحه سلطة للتصرف في الأمور كما يشاء، وحوّله نوعاً من الاستقلال [Autonomy] واستخلفه في الأرض.

(٢) وحينما عهد الله تعالى إلى الإنسان بهذا المنصب الخطير، أثبت في قرارة نفسه هذه المعاني، إني أنا ربك ورب هذا العالم، وإلهك وإله هذا العالم. وحاكمك وحاكم هذا العالم. فلا تكن في مملكتي هذه حراً طليقاً تركب رأسك، ولا تكن عبداً لغيري، فلا أحد غيري يستحق أن تطيعه وتعبده وتخضع أمامه. وإن الحياة الدنيا التي أعطيت فيها نوعاً من الاستقلال إنما هي فترة امتحان ترجع إليّ بعد انتهائها فأفحص ما عملت فيها، وأفصل في أمر من نجح ومن رسب. وأصحّ منهج تختاره في هذه الدنيا: أن تتخذني إلهك الواحد وحاكمك الفرد، وتعمل حسب ما أنزل من هدى، وأن تعيش وأنت تشعر بأن الدنيا دار للامتحان، وأن غرضك الحقيقي هو أن تنجح في الآخرة. وعليك ان تعلم أيضاً أن كل منهج يخالف هذا المنهج هو خطل وخطأ. وأنت إن اتبعت المنهج الأول (وأنت حر في أن تتبعه) فلن تتمتع في الدنيا فحسب بالأمن والاطمئنان، بل سأنعم عليك حين ترجع إليّ، بدار اسمها "الجنة" تجد فيها نعيماً مقيماً وراحة أبدية. ولا يمسك فيها نصب ولا لغوب. وإن سلكت منهجاً آخر غير هذا المنهج (وأنت حر في أن تسلكه) فلن تذوق في الدنيا فحسب وبال الفساد والقلق والدمار، بل حينما تعبر هذا العالم إلى عالم الآخرة سيكون مصيرك إلى هاوية النار فيها عذاب خالد وألم دائم وغمّ أبدي.

(٣) أسكن الله مالك الكون النوع البشري في الأرض بعد أن ثبت في قرارة نفسه المعاني السابقة. كما أنه جلّ شأنه أتى الإنسان الأول وزوجه - آدم وحواء عليهما

السلام - هدى من عنده ليتبعاه، هما وذريتهما في الأرض. ولم يخلق الإنسان الأول في حالة الجهل والظلام. بل إن الله سبحانه وتعالى خلق آدم وحواء ليبدأ حياهما في الأرض على حالة من النور والعلم. فكان الإنسان الأول يعرف ما هو الحق، ويعلم ما ينبغي له علمه من قانون للحياة، وكان منهجه في الحياة طاعة الله (أي الإسلام). ووصى بدوره ذريته بأن لا يطيعوا إلا الله ولا يموتوا إلا وهم مسلمون. إلا أن الإنسان قد حاد عن المنهج الصحيح (أي الدين القيم) في القرون المتعاقبة رويداً رويداً، وأتبع السبل المعوجة والمناهج المنحرفة المتضاربة. وضل عن الطريق السوي بعدم المبالاة به مرة وبمسخه بجحود ومكابرة مرة أخرى. فأشرك بالله في ذاته وصفاته ذواتاً عديدة من السماء والأرض، وهمية ومادية، بشرية وغير بشرية. وخلط أنواعاً من الأوهام وضروباً من النظريات وألواناً من الفلسفات بنوع طاهر من العلم (أي علم الحق) الذي آتاه الله، وصنع من ذلك مذاهب لا عدل لها ولا حصر، ونبذ وراء ظهره ما قرره الله من مبادئ عادلة للأخلاق والمدنية (أي الشريعة) أو مسخها. ثم وضع كما أوحى له هواه وعصبيته نظماً ومناهج للحياة ملأت أرض الله ظلماً وفساداً وبوراً وشقاء.

(٤) إن الله الذي أعطى الإنسان ذلك الاستقلال المحدود، لم يتدخل - بصفة كونه تعالى خالقاً - في ردّ من ضلّ وغوى من الناس إلى المنهج الصحيح بالقهر والقسر. كما أن المهلة التي منحها الله للإنسان ليعمل في الدنيا بحرية، لم يكن ليناسبها أن يأخذها ويهلكه بمجرد شقه عصا طاعته وأتباعه طريق البغي. ثم إن الله سبحانه وتعالى قد أوجب على نفسه منذ بدء الخليقة أن يدبر للإنسان طرق هدايته مع إقرار استقلاله في فترة المهلة التي أعطاه إياها، وتحقيقاً لما أوجبه الله تعالى على نفسه بإرادته المطلقة، اصطفى الله من النوع البشري رجالاً آمنوا به وابتغوا مرضاته، وأتخذهم مبعوثين له، وأوحى إليهم علم الحق، وأنزل عليهم منهجاً صحيحاً للحياة، وأمرهم بأن يدعوا الناس إلى الصراط المستقيم الذي عدلوا عنه.

(٥) بعث هؤلاء الرسل إلى مختلف الأمم ومختلف الأقطار واستمرت سلسلة بعثهم آلافاً من السنين، وكانوا آلافاً مؤلفة. وكانوا على دين واحد أي نفس المنهج الصحيح الذي علمه الله الإنسان منذ هبط إلى الأرض. وكانوا يتبعون هدياً واحداً. أي نفس المبادئ الخالدة العادلة للأخلاق والمدنية التي قررها الله تعالى للإنسان في بداية الأمر، وكانوا يرمون إلى غرض واحد أي دعوة النوع البشري إلى دين الله وهدايته. ثم إن الذين قبلوا دعوتهم نظموهم وجعلوهم أمة واحدة، تتبع أحكام ربها وتطيع المنهج الإلهي في الدنيا، وتسعى لمنع الناس من مخالفة هذا المنهج. إن رسل الله قاموا بتحقيق ما أرسلوا به على أكمل وجه. إلا أن الذي حصل على مدار التاريخ هو أنه لم يلتفت العدد الكثير من



الناس إلى دعوتهم، كما أن الذين آمنوا بدعوتهم واتبعوهم وأصبحوا أمة مسلمة قد أخذوا في الفساد والضلال على مر الأيام وكر الليالي. فمنهم من ضل عن الحق كل الضلال، ومنهم من مسخ تعاليم الله وحرّف الكلم عن مواضعه وكتب فيها بيده.

(٦) وأخيراً بعث الله محمداً ﷺ في أرض العرب بنفس المهمة التي بعث بها من سبق من الأنبياء والرسل. فكانت دعوته ﷺ لكافة الناس بما فيهم لأتباع الأنبياء الذين خلوا من قبله. كانت مهمته ﷺ دعوة الناس كافة إلى المنهج الصحيح، وتبليغهم هداية الله من جديد، وجعل من آمنوا بهذه الدعوة أمة واحدة، تقيم نظام حياتها على هدى من الله ثم تخرج لهداية الدنيا وإصلاحها. وإن هذا القرآن هو كتاب الدعوة وسفر الهداية الذي أنزله الله تعالى على محمد ﷺ فيه هدى ونور، يهدي به من يشاء من عباده.

## موضوع القرآن وبحثه الرئيسي وهدفه

والآن وقد عرف القارئ "أصل" القرآن، يمكنه أن يفهم ما هو موضوع هذا الكتاب، وما هو بحثه الرئيسي، وما هو هدفه المنشود:

### فموضوعه:

"الإنسان"؛ ما هو مدار نجاحه وسعادته وما هو مدار خسارته وشقائه.

### وبحثه الرئيسي:

أن النظريات التي وضعها الإنسان عن نفسه وعن الحياة الدنيا وعن نظام الكون وعن ذات الإله، مدفوعاً بدراسته السطحية وتقديراته الخيالية وخضوعه لسلطان الأهواء، ثم المواقف التي اتخذها على أساس تلك النظريات، فإنها كلها في حقيقتها باطلة ومهلكة للإنسان نفسه من ناحية المصير. وإنما الحق هو الذي علّمه الله الإنسان حين جعله خليفة له في الأرض. وبموجب ذلك الحق ليس من منهج من المناهج يقوم على الصحة ويتوصل إلى العاقبة الحسنة إلا المنهج الذي ذكرناه فيما سبق وسميناه: "المنهج الصحيح".

### وهدفه:

دعوة الإنسان إلى هذا المنهج الصحيح، وتبيان لهدى الله الذي ضل عنه الإنسان بعدم المبالاة، أو شوهه بدافع من غروره ومكابرتة.

والذي يدرس القرآن واضعاً هذه النقاط الثلاث الأساسية أمام عينيه يتبين له بدون ما غموض، أن هذا الكتاب لم يجد عن موضوعه وبحثه الرئيسي وهدفه المنشود، حتى ولا قيد شعرة. وتجد مباحثه المنوعة تلتئم مع بحثه الرئيسي التمام الدرر الملونة الصغيرة والكبيرة في سمط القلادة السندسي. إنه يتحدث عن السماء كيف صنعت، وعن الإنسان كيف خلّق، وعن المشاهدات في آثار الكون، وعن الأمم الخالية وقصصها. إنه ينتقد أعمال مختلف الأمم وسلوكها وعقائدها. إنه يوضح الشؤون والمسائل التي هي وراء الطبيعة. إنه يتناول أموراً كثيرة غير ما ذكرناها. لا ليدرّس الإنسان علوم الطبيعة أو التاريخ أو الفلسفة أو أي فن من الفنون أو أدب من الآداب، بل لكي يزيل ما عليه الناس من خطأ وسوء فهم عن الحق، ويقرر في أذهانهم الحقيقة الواقعية، ويشعرهم بما يؤدي إليه

المنهج الذي يخالف الحق من مصير بئيس وعاقبة وخيمة، ويدعوهم إلى المنهج الذي يلائم الحق ويأخذهم إلى حسن المآب. ولهذا السبب نفسه هو لا يحدث عن كل هذه الأمور إلا في أسلوب يتناسب مع هدفه، وإلى حدّ يلزم له. ومن دأبه أنه يذكر هذه الأمور بقدر الحاجة ثم يعود إلى بيان هدفه وبجته الرئيسي بغض النظر عن التفاصيل التي لا علاقة لها بالبحث، ولذلك ترى حديثه يدور حول " الدعوة " بدون التواء وبكل اتزان.

غير أنه من الصعب على الإنسان أن يفهم الأسلوب البياني للقرآن وترتيبه وأكثر مباحثه ما دام لا يعرف كيفية نزوله.

## مراحل نزول القرآن

ليس القرآن بكتاب أنزله الله تعالى على محمد ﷺ جملة واحدة ثم أمره بنشره ودعوة الناس إلى ما فيه من منهج خاص للحياة البشرية. كما أنه ليس بكتاب عرض فيه موضوعه وبجته الرئيسي على غرار أسلوب التأليف الشائع. ولأجل ذلك لا تجد فيه الترتيب الذي هو من شأن المؤلفات الإنسانية، ولا الأسلوب البياني الذي هو من شأن كتب الدنيا، وهذا الكتاب في حقيقة الأمر من نوع فريد..

### المرحلة الأولى:

وقصته أن الله تعالى قد اصطفى عبداً من عباده في مكة - إحدى مدن جزيرة العرب - لرسالته، وأمره أن يبدأ بدعوته في مدينته وفي عشيرته (قريش)، وقد لقنه التعاليم التي لا بد منها للشروع في هذه المهمة. وهذه التعاليم الابتدائية كانت في معظمها تحتوي على ثلاث نواح:

أولاً: تعليم الرسول كيف يعدّ نفسه لتحقيق هذا الأمر الجليل وعلى أي طراز يسعى سعيه.

ثانياً: المعلومات الأولية عن الحق، والرد الإجمالي على ما كان في أذهان الناس الذين يعيشون حوله من مغالطات وأخطاء عن الحق جعلت منهجهم في الحياة في عمى وضلال.

ثالثاً: دعوة الناس إلى المنهج الصحيح، وإيضاح مبادئ الأخلاق الرئيسية التي يحتضنها الهدى الإلهي والتي في اتباعها نجاح الإنسان وسعادته.

كانت هذه المعاني الأولية تحتوي على شذور موجزة تناسب مرحلة انطلاق الدعوة في لغتها الرفيعة، وفي معانيها السامية، وفي حلاوتها المتناهية، وفي تأثيرها البالغ وهي في أعلى درجات الذوق الأدبي الذي كان يساير مستوى ذوق المخاطب لتنطبع هذه الشذور الزمردية من النعم الإلهي في قلوب القوم انطباع السهم في الصدور. ولتميل إليها الآذان مستجيبة لترنمها الساحر، ولتجري الألسن بترديدها لما فيها من جمال التناسب وحلاوة التنسيق.

ثم إن هذه الشذور كانت مصطبغة بصبغة الأوضاع المحلية إلى حد كبير. وإن كان الحديث فيها يدور حول الحقائق الكونية الخالدة ولكن الدلائل التي كانت تساق لها، والشواهد التي كانت تشير إليها، والنظائر التي كانت تؤتى بها، كانت تلتقط كلها من البيئة المحاورة المألوفة للناس. فما جاء فيها من التاريخ فهو تاريخهم، وما قصَّ فيها من الأحداث فهي أحداثهم وتقاليهم، وما ذكر فيها من الآثار فهي مما كانوا يشاهدونه بأب أعينهم، وما رُدد فيها من القول فهو عن مفاسدهم العقائدية، ومساوئهم الخلقية، وعيوبهم الاجتماعية. وذلك لكي تصير هذه الدعوة أوقع في نفوسهم وأقرب إلى أذهانهم.

استغرقت هذه المرحلة الابتدائية من الدعوة حوالي أربع أو خمس سنوات. وردُّ الفعل الذي ظهر في هذه المرحلة من دعوة النبي ﷺ كان يتجلى في ثلاثة أشكال:

- (١) آمن جماعة من خيار الناس بهذه الدعوة الكريمة واستعدوا ليكونوا أمة مسلمة.
- (٢) نهض العدد الكبير من الناس يناوئون هذه الدعوة، إما لجهلهم أو انجرافهم وراء الأهواء والأغراض أو ولوعهم بما وجدوا عليه آباءهم.
- (٣) بدأت هذه الدعوة الجديدة تتعدى حدود مكة وأهلها من قريش وتنتشر في نطاق أوسع نسبياً.

## المرحلة الثانية:

ثم بدأت المرحلة الثانية من الدعوة، وقد نشأ في هذه المرحلة صراع عنيف بين الحركة الإسلامية وبين الجاهلية السائدة، وامتدت سلسلته قرابة ثماني أو تسع سنوات، لا في مكة فحسب أو بين قريش فحسب، بل كل من كان يريد بقاء الجاهلية الأولى في معظم أقطار جزيرة العرب، شمرَّ عن ساقه وكشَّر عن أنيابه للقضاء على هذه الحركة بما يملك من قوة.

استخدم المعارضون جميع الوسائل والمكاييد لقمع هذه الدعوة؛ قاموا بدعاية كاذبة، وألقوا بوابل من الاتهامات والشبهات والاعتراضات. وقذفوا الوسوس المنوَّعة في قلوب الناس، وحاولوا صدَّ الذين كانوا يجهلون أمر النبي عن استماع ما يقوله، وانهمالوا على الذين آمنوا بالله ورسوله بألوان من الظلم وأنواع من التنكيل، وقاطعواهم مقاطعة اقتصادية، ونعَّصوا عليهم العيش حتى اضطرَّ كثير منهم إلى الهجرة من ديارهم إلى بلاد الحبشة مرتين. وآخر الأمر هاجر جميعهم إلى يثرب (المدينة المنورة). وعلى رغم هذه

المعارضة الشديدة والتي كانت في ازدياد مستمر، بقيت الحركة في انتشار وازدهار. ولم يكن بيتٌ من بيوت مكة إلا وقد آمن فرد من أفرادها. وكان مما يزيد المعارضين عداً وحققاً لهذه الحركة أن أصبح أشقاؤهم وأحفادهم وأبنائهم وأخواتهم وأزواج أخواتهم يتبعون دين الله. وليس ذلك فحسب، بل أصبحوا يسترخصون كل نفس ونفيس في سبيله ثم هضوا يقاتلون ذوي قرباهم.

ومن الطريف أن الذين كانوا يقطعون صلتهم بالجاهلية الأولى وينضمون إلى هذه الحركة الناشئة كانوا ممن يعتبرون خيار مجتمعهم وزبدة قومهم، وحينما كانوا ينخرطون في سلك الدعوة الجديدة كانوا يبلغون في صلاحهم وصدقهم واستقامة أخلاقهم الشأو البعيد، حيث لم تتمالك الدنيا إلا الاقتناع بسمو الدعوة التي كانت تستميلهم بشدة ثم تصنع منها ما تصنع.

وفي غضون هذا الصراع العنيف الطويل، كان الله تعالى يتزل على نبيه بحسب المناسبات واقتضاء الحاجة، كلمات (آيات) هيّاجة في جريانها كالنهر الجاري وفي قوتها كالفيضان الهائل وفي تأثيرها كالنار المضطربة. وفي هذه "الآيات" أخبر المؤمنون بواجباتهم الابتدائية، وبعث فيها الوعي الجماعي الحركي، وعلموا الورع والتقوى ومكارم الأخلاق وطهارة السلوك، ولقنوا مناهج تبليغ الدين القيم وطرق إقامته، وشجعوا على مواصلة الدعوة بوعد غير مكذوب بالفوز بالجنة التي فيها نعيم مقيم. واستحثوا على الجهاد في سبيل الله بصبر واستقامة ومعنوية عالية. وعُيبت قلوبهم بشوق دافق إلى جنة عرضها السماوات والأرض، ومثلتوا بحماسة دفعتهم إلى مواجهة أفسى محنة والوقوف في وجه أعنى عاصفة من المعارضة.

هذا في جانب المؤمنين، وفي الجانب الآخر أندر الذين كفروا بالله وتمردوا على رسوله، وحاربوا دعوته وأعرضوا عن الحق، بما صارت إليه الأمم التي خلت من قبلهم وكانوا يعرفون قصصها وتاريخها. ودعوا للاعتبار بآثار المؤتفكات التي كانوا يمرون على أنقاضها مصبحين وممسين أثناء أسفارهم. وعرضت عليهم أدلة التوحيد والآخرة المستندة على الآيات التي كانوا يشاهدونها في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، وكانوا يرونها ويشعرون بها في أنفسهم وفي حياتهم في كل آن. كما بين لهم بطلان موقف الإشراف بالله والادعاء بالاستقلال المطلق، وجحود الآخرة والإصرار على اتباع ما وجدوا عليه آباءهم، وبدلائل ناصعة تستقر في القلوب وتنفذ إلى الأعماق البعيدة من العقول. وأزيلت آخر شبهة عالقة بأذهانهم عن صحة الدعوة، وردّ آخر اعتراض منهم برد معقول، وحلّ آخر تعقيد ذهني كانوا قد وقعوا فيه أو كانوا يوقعون غيرهم فيه.

وخلاصة القول أن الجاهلية حوصرت وضيّق عليها خناقها بشكل لم تبق معه أية مكانة في عالم العقل والحصافة والجدية. ثم أُنذروا - مع ذلك - بغضب الله وأهوال يوم القيامة وعذاب جهنم، ووبّخوا على ما كانوا عليه من رذالة الأخلاق، ومنهج الحياة الباطل، وتقاليد الجاهلية، ومعاداة الحق وإيذاء المؤمنين، وعرضت عليهم المبادئ الأساسية للأخلاق والمدنية التي نشأت عليها - وستنشأ - حضارات صالحة طاهرة في العالم كسبت رضى الله في كل دور من أدوار التاريخ البشري.

هذه المرحلة نفسها كانت تحتوي على عدة مراحل جزئية، وفي كل من هذه المراحل ظلت الدعوة تتوسع ويمتد نطاقها. وبالتالي ظلّ النضال يشتد، ونار المعارضة تستعر. وظلت الدعوة تواجه كل يوم شكلاً جديداً من العقائد والأفكار وتناضل نوعاً جديداً من الفئات المختلفة في أخلاقها ومواقفها. ومن ثم فإن آيات الله كذلك زادت تنوعاً في بحثها وتلوّناً في عرضها. وهذا هو السياق التاريخي للقرآن المكيّ.

### المرحلة الثالثة:

مضت على هذه الحركة ثلاثة عشر عاماً تكافح وتجاهد. وإذا بها تفوز بمقرّها في يثرب (المدينة المنورة) ودعت أتباعها من أنحاء جزيرة العرب إلى هذا المقر، لتكوّن مجتمعاً مستقلاً وتستجمع طاقاتها في مركز واحد. فهاجر النبي ﷺ ومعظم أصحابه الذين اتبعوه بإحسان إلى المدينة المنورة. وبذلك دخلت الدعوة الإسلامية المرحلة الثالثة.

انقلب الوضع في هذه المرحلة رأساً على عقب، فالأمة المسلمة تمكنت من تأسيس دولة مستقلة، وبدأ النضال المسلح من أصحاب الجاهلية القديمة، وبدأت الدعوة تواجه أمم الأنبياء السالفة (أي الأمة اليهودية والأمة المسيحية)، كما بدأت تتخلّص كذلك من المنافقين الذين تسربوا إلى الكيان الداخلي للأمة الإسلامية. وبعد مقاساة الصراع العنيف والكفاح المديد عشر سنوات بلغت الحركة الإسلامية في نهاية المطاف من القوة والسلطان درجة أصبح معها العرب كلهم خاضعين مستسلمين، وانفتحت أمامها أبواب بثّ الدعوة على الصعيد العالمي، والقيام بحركة إصلاحية عبر الحدود. وقد اشتملت هذه المرحلة أيضاً على عدة مراحل جزئية واجهت الدعوة في كل مرحلة منها حاجات تختص بها. وتحقيقاً لهذه الحاجات أنزل الله على نبيه ﷺ من الكلمات (الآيات) ما كان أسلوبها يتنوع بتنوع الحاجة. فمرة كان أسلوبها أسلوب الخطاب الملجلل الرنان المتأجج بنار المشاعر، وأخرى أسلوب الأوامر والمراسيم الملكية، وثالثة أسلوب دروس المعلم، ورابعة أسلوب تذكير المصلح الناصح. وجاء فيها كيف ينشأ المجتمع وتؤسس الدولة وتبنى المدنية الصالحة. وعلى

أيّ المبادئ والأنظمة تقام مختلف نواحي الحياة. وبأيّ طريق يتعامل مع المنافقين ومع أهل الذمة من الكافرين. وعلى أيّ لون توطد العلاقات مع أهل الكتاب، وماذا يختار من السلوك مع الأعداء المحاربين والأقوام المعاهدين. وكيف تعدُّ هذه الجماعة المؤمنة المنظمة نفسها للقيام بمهمة خلافة الله في الأرض.

هذه الكلمات أو الآيات كانت تقوم بتوجيه المسلمين وتربيتهم على ما يرام، وكانت تنبههم على مواطن ضعفهم وتحرضهم على أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وتعطيهم دروساً في الأخلاق والسلوك تناسب واقعهم في الانتصار والهزيمة، وفي الحنة والراحة، وفي السراء والضراء وفي الأمن والخوف وما إلى ذلك من حالات. وكانت تصنع منهم جماعة تتوفر فيهم كفاءة ليخلفوا الرسول ﷺ بحق، ويتابعوا مهمته في الدعوة والإصلاح. هذا في جانب، وفي الجانب الآخر كانت هذه (الآيات) جوانب الذين حُرِّموا من الإيمان من أهل الكتاب والمشركين والكفار والمنافقين، وتدعوهم إلى الخير وفق حالة كل منهم وحسب موقف كل منهم من الدعوة وذلك بوسائل الإقناع وبالقول اللين والموعظة الحسنة، وبالنصيحة البالغة، والتفريع الشديد، وبالتخويف من عذاب الله، وباستخلاص جوانب العبرة والعظة من الأحداث والأوضاع المتضمنة للدروس القاسية. وذلك لتقيم عليهم الحجة، وتسدّ عليهم منافذ الأعذار. وهذا هو السياق التاريخي للقرآن المدني.



## القرآن كتاب دعوة ومنهج حركة

ويتضح مما ذكرنا آنفاً أن القرآن كان نزوله مقترناً بالدعوة وتطورها وسيرها. فترذلت منه قطع مختلفة، نجماً نجماً، وفق حاجات الدعوة المتجددة ومقتضاها الواقعي في كل مراحلها ومنازلها منذ بدايتها حتى اكتمالها. وذلك في فترة استغرقت ثلاثة وعشرين عاماً كاملاً. ومن البديهي إذن أن مثل هذا الكتاب يعوزه الترتيب التأليفي من النوع الذي يختاره الطالب في إعداد البحث لأجل الحصول على شهادة الدكتوراه. كما أن القطع المختلفة الأحجام التي كانت قد نزلت منسجمة مع تطور الدعوة، ما كانت تنشر في رسائل وكتيبات، بل كانت تلقى في خطاب من رسول الله ثم تتناقل مشافهة وتبلغ من فرد لفرد. لذلك ما كانت تصاغ على أسلوب التأليف، بل كانت تعرض في الأسلوب الخطابي الذي لا ينسج على منوال محاضرات الأستاذ في الجامعة، بل كان يشابه خطبة الداعية الذي عليه أن يستهدف إثارة العواطف بجانب مناشدته العقول، وعليه أن يواجه كل نوع من أنواع العقليات، وعليه أن يعمل لما تقتضيه دعوته وحركته في ظروف متباينة وأوضاع متضاربة. فمن إقرار الدعوة في سويداء القلوب إلى مخاطبة العقول بمختلف النظريات إلى استشارة الفيض من المشاعر، إلى كسر شوكة المعارضة، إلى تربية الأتباع وإصلاحهم، إلى نفخ الحماس في نفوسهم، إلى تحويل الأعداء أصدقاء أوفياء، إلى إرغام المنكرين على الإقرار، إلى دحض حجة الجاحدين وقطع دابر نفوذهم الأدبي، وما إلى ذلك من الأمور التي يجب على رائد الدعوة وقائد الحركة أن يقوم بها على أكمل وجه وأوفق منهج.

ونظراً لكل ذلك، فإن الكلمات (الآيات والسور) التي أنزلها الله على رسوله ﷺ فيما يتعلق بمهمته الجليلة كانت في أسلوب خطابها على نفس الأسلوب الذي يلائم ظروف الدعوة ويناسب واقعها الذي تعيش فيه. ومن هنا لا يحسن بنا أن نطلب منه الأسلوب الذي يخص محاضرات الجامعة ودروسها.

## سر التكرار في القرآن

ومن هنا يتضح وضوح الشمس في رابعة النهار، سرّ ترديد بيانات القرآن بكثرة. إذ مما تقتضيه طبيعة الدعوة أن لا تتحدث إلا بما يناسب المرحلة التي تعيش فيها؛ وما دامت تعيش فيها لا تتعرض لحديث يخص المراحل المقبلة، بل تظل تردد حديثها عن المرحلة التي هي فيها ولو استغرقت الشهور أو السنين. وقد تتضجر الطبايع وتسأم الأذن لو بقيت العبارة بعينها تتكرر، وفي صياغة واحدة تتردد. لذلك فإن المباحث التي تخص مرحلة من المراحل وتمس الحاجة إلى عرضها مرة بعد أخرى كان يجب أن تصاغ في كل مرة في ألفاظ مبتكرة وأساليب ناضرة ومحاسن بيانية غضة طرية، تشتهبها الأنفس وتلقفها القلوب. وبذلك تصبح كل مرحلة من المراحل متينة القواعد، محكمة الدعائم، مستقيمة البناء، ويجب فوق ذلك أن لا يغرب عن البال تلك المبادئ العامة والقواعد التي تعتمد عليها الدعوة في كل حين من الأحيان وفي كل وضع من الأوضاع منذ الخطوة الأولى حتى تمامها وكمالها، بل لا بد من أن تلفت إليها الأنظار في جميع مراحل الدعوة مهما كان الحال. وهذا هو السر في شمول جميع سور القرآن على موضوعات ثابتة، ولكن في ألفاظ متجددة وأسلوب متنوع.

فمثلاً ما يتعلق بعقيدة التوحيد، وصفات الله، والآخرة ومسؤوليتها وعذابها وثوابها، والرسالة والإيمان بالكتاب، وتقوى الله والصبر، والمصابرة، والتوكل وما إلى ذلك من حقائق أساسية فإنك لترى القرآن يعيد ذكرها ويردّد بيانها في جميع سورته المكية والمدنية، لأن الحركة لا تستطيع الإغماض عنها أو التساهل فيها في أي مرحلة من مراحلها. ولو كانت هذه العقائد الأساسية وهنت في نفوس المؤمنين لما تقدمت حركة الإسلام بروحها الصحيحة وطبيعتها الفذة.

## كيف رتبت آيات القرآن

وإذا سبرت غور ما سبق قوله لتوصلت إلى جواب مقنع على ما يدور في خلدك من سؤال: لماذا لم يجمع النبي ﷺ القرآن حسب ترتيب نزوله عليه؟.

إن القرآن كان يتزل وفق الترتيب الذي سارت عليه الدعوة منذ بدئها حتى بلغت أوج الكمال. ويتضح من ذلك أنه لم يكن من الحكمة في شيء أن يختار لتدوين الأجزاء المترلة نفس الترتيب الذي كان ملتتماً مع سير الدعوة وتطورها، بل الأمر كان بحاجة إلى ترتيب جديد يكون أكثر انسجاماً وأشد تجانساً وأدق ارتباطاً مع الواقع الآني بعد اكتمال الدعوة وتمام النعمة. لأن المخاطبين الأولين لهذه الدعوة في بداية أمرها كانوا ممن يجهلون الإسلام بالكلية، فلذلك غشاهم الوحي بأوليات التعليم وبديهيات الإيمان. ثم لما اكتملت الدعوة وبلغت ما شاء الله أن تبلغه أصبح مخاطبوها الأولون من الذين آمنوا بها وكونوا أمة مستقلة، أصبحوا مسؤولين عن متابعة الدعوة ومواصلة الحركة التي سلمها الرسول ﷺ لهم بعد كمالها فكرة ومنهاجاً. وهكذا صار الأمر الأهم هو أن يدرك هؤلاء المؤمنون، قبل غيرهم، واجباتهم ومناهج حياتهم، وأن يعرفوا الفتن والأمراض التي أبتليت بها أمم الأنبياء فيما مضى، قبل أن يتقدموا بهداية الله إلى البشرية التي ترزح تحت نير الضلال والغواية والانحراف.

وهناك حقيقة أخرى تتكشف للإنسان إذا ما وُفق إلى معرفة أسلوب القرآن. وهي أن وضع الآيات المتجانسة في المباحث في موضع واحد لا يوافقه طبيعة هذا الكتاب. بل من عين ما تقتضيه طبيعته هو أن يجد القارئ أثناء دراسته للقرآن الآيات المكية (أي التي نزلت في مكة) تتخللها الآيات المدنية (التي نزلت في المدينة) والمواعظ الابتدائية تحف بها الوصايا النهائية وتعاليم المرحلة الختامية تواكبها تعاليم المرحلة الابتدائية، وهكذا يلمح أمام عينيه منظر الإسلام الكامل وتخطيطه الشامل مشرقاً متلاًئلاً بصفة مستمرة، ولا يبرز له من واجهة بعينها دون غيرها.

لو جمع القرآن على الترتيب الذي نزل عليه لما كان هذا الترتيب مجدياً ومفهوماً للعصور التي تلت عهد النبوة، بدون أن يضاف إلى القرآن تاريخ نزوله وتاريخ الظروف التي نزل فيها كل جزء من أجزائه كملحق للقرآن. الأمر الذي كان ينافي الغرض الذي شاء الله لأجله أن يدون كلامه ويحفظ في مصحف، والله سبحانه وتعالى كان يريد أن يجمع كلامه خالصاً نقياً لا يشوبه شائبة من الزيادات ولا يمازجه كلام غيره. يرتب على ما هو عليه من الإيجاز والإعجاز معنى وصورة، لتيسر قراءته لكل فرد من الأفراد: الصغير

والكبير، الناشئ والكهل، الرجل والمرأة، الرجل العادي والعالم الضليع، في المدن والقرى، في كل زمان ومكان، في كل حال وواقع. وليدرك جميع الناس على الأقل - مهما اختلفت درجات عقولهم - ماذا يريد الله منهم وماذا لا يريد منهم. ومن الواضح أن لو أضيفت إلى القرآن، تاريخه المطول وجعلت تلاوته أمراً لازماً مع تلاوة القرآن، لضاع هذا الغرض.

ومما لا يختلف فيه اثنان أن الذين يعترضون على الترتيب الحالي للقرآن عن سوء فهم أن هذا الكتاب قد أنزل إلى طلبة علم التاريخ وعلم الاجتماع.

وفيما يتعلق بترتيب القرآن يجب أن يعرف الدارس كذلك أن الترتيب الحالي ما قام به الذين جاءوا بعد النبي ﷺ بل هو توقيفي وضعه النبي ﷺ نفسه بتوقيف من جبريل عليه السلام. وكان من عادته ﷺ أنه كلما نزلت سورة من سور القرآن كان يدعو بعض كتابه وكان يأمر بكتابتها ويأمر بوضعها عقب سورة كذا وقبل سورة كذا، وكذلك حين ينزل شيء من القرآن (أي آية أو بضع آيات) ولم يرد جعله سورة مستقلة أمر النبي ﷺ بوضعه في موضع كذا من سورة كذا. ووفق هذا الترتيب نفسه كان ﷺ يتلو القرآن في الصلوات وغيرها من المناسبات. ووفق هذا الترتيب نفسه كان أصحابه الكرام يستظهرون القرآن ويتدارسون. ولهذا كان من الثابت تاريخياً أن اليوم الذي أكمل فيه نزول القرآن أكمل فيه ترتيبه. ومرتبّه هو الذي أنزله. والذي أنزل القرآن على قلبه رتب القرآن على لسانه. وما كان لأحد غيره أن يتدخل فيه.

## تدوين القرآن

وبما أن الصلوات كتبت على المسلمين منذ البداية<sup>(١)</sup> وتعيّنت قراءة ما تيسر من القرآن فيها. فلذلك بدأت في المسلمين حركة حفظه في الصدور، مقرونة بتزوله على صاحب الوحي عليه الصلاة والسلام. وكلما كان يتزل منه شيء كانوا يتلقونه ويستظهرونه عن ظهر غيب. ولم ينحصر حفظه بكتابه في العصب وقطع الأدم وكسر الأكتاف<sup>(٢)</sup> التي كان يكتب فيها كتاب النبي ﷺ تحت رعايته، بل كان يرسم كذلك بمجرد نزوله على العشرات فالمئات ثم الآلاف فالملايين من الصدور، ومن هنا ما كان لباطل أن يأتيه من بين يديه ولا من خلفه ليعيّر فيه ولو كلمة.

ولما ظهرت فتنة الردّة بعد وفاة النبي ﷺ قام الصحابة رضوان الله عليهم بمعارك دامية لقمعها وقطع دابرها. فاستشهد فيها جماعة كبيرة من قراء الصحابة الذين كانوا يحفظون القرآن كله. الأمر الذي بعث عمر رضي الله عنه على القول بأنه لا ينبغي الاعتماد على صورة واحدة في باب المحافظة على الذكر الحكيم، بل يجب الاهتمام بحفظه في قراطيس الصحف مع حفظه في طيات الصدور. فذكر عمر رضي الله عنه ضرورة هذا الأمر لأبي بكر رضي الله عنه الذي تردد بدئ ذي بدء، فلم يزل عمر يراجع حتى شرح الله لذلك صدر أبي بكر. وكلف زيد بن ثابت الأنصاري الذي كان من كتاب النبي ﷺ وكان يكتب الوحي أن يتبع القرآن ويجمعه. والطريقة التي قررت لاستكمال هذا الأمر الخطير هي أن يجمع كل ما تركه النبي ﷺ من أجزاء مكتوبة في صحف من الرقاع والجلد ونحوها، ويؤخذ كذلك ما يوجد عند أي واحد من الصحابة مما كتب من القرآن. ثم يستعان بحفاظ الصحابة في ضبط المحفوظ. وبناء على شهادة إجماعية من هذه الوسائل الثلاث وبعد التثبت من عدم وجود أية غلطة في المكتوب والمقروء تسجل لفظة لفظة من القرآن. وبموجب هذه الطريقة المحكمة كتبت نسخة من القرآن في الصحف، وأودعت عند أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها التي كانت تحفظ القرآن كله في صدرها. أذن لعامة المسلمين أن ينسخوا منها أو يقابلوا ما عندهم من المكتوب عليها.

(١) وليكن القارئ على ذكر أن الصلوات الخمس كتبت على المسلمين بعد البعثة بسنوات، أما الصلوات كعبادة فقد أمر بها المسلمون منذ اليوم الأول. ولم تمض على الإسلام ساعة لم تكن الصلوات فيها واجبة مطلوبة.

(٢) العصب بضم فسكون وبضمتين أيضاً جمع عسيب وهو جريد النخل، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض. والأدم بضمعين وبفتحتين أيضاً جمع أدم: وهو الجلد المدبوغ. والأكتاف جمع كتف: وهو عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان.

وكانت لغات القبائل في الجزيرة العربية تختلف بعضها عن بعض في القراءات واللهجات شأن اختلافها باختلاف المدن والمديريات في بلادنا (باكستان) مع أن لسان جميعها واحد أي الأردو أو البنجابي أو البنغالي. والقرآن كان قد نزل بلغة قريش. ولكن أجزى في أول الأمر للقبائل الأخرى أن يقرأ أهل كل قبيلة القرآن بلغتهم وبما جرت عليه عادتهم، لأن ذلك لا يؤدي إلى اختلاف معانٍ موجبة لاختلاف أحكامه. بل ذلك يسهل عليهم التلاوة وتلين لهم العبارة. ولما اتسع نطاق الفتوح الإسلامية، وتعدى العرب صحاريهم الفاحلة، وفتحوا الأقطار الشاسعة من العالم، ودخلت الأمم الأخرى في دين الله واختلط العرب بالعجم، وتأثرت بذلك الاختلاط لغتهم، خشى الناس حدوث أنواع من الفتن لو استمر الناس على تلاوة القرآن بلهجاتهم وعاداتهم التي درجوا عليها، كأن يسمع أحدهم غيره يقرأ كتاب الله بلغة لم يألفها هو فيظنّه يحرف القرآن معتمداً، فيكفره ويقتتل معه. أو يتدرج اختلاف الألفاظ والتلاوة إلى فتح باب التحريف والتصحيح أو أن تفسد لغة بعض العرب باختلاطهم مع العجم فيصرفون القرآن على لغتهم الفاسدة ويشوهون بديع كلامه ورونق قراءته.

وحرصاً على إبعاد المسلمين عن تلك الفتن قرر عثمان رضي الله عنه على مشورة من أصحاب الرسول ﷺ أن تنسخ المصاحف من الصحف المعتمد عليها والتي ضبطت في عهد أبي بكر رضي الله عنه، وتفرق في البلاد الإسلامية ويمنع من التداول ما سواه من القرآن المكتوب بقراءة أخرى أو لهجة مخالفة. ففعل عثمان ذلك وعهد إلى جماعة من الصحابة بجمعها في مصحف واحد، وكتب منه نسخاً كثيرة وزعت على الأمصار، وبعث مع كل مصحف من يرشد الناس إلى قراءته.

إن المصحف الذي بين أيدينا اليوم هو على طبق رسم مصحف الصديق الذي نسخ منه عثمان رضي الله عنه نسخاً عديدة تحت إشرافه. وفرق منها في المدن والأمصار. ولا تزال هذه النسخ المعتمد عليها محفوظة بعدد من الأماكن في الدنيا. والذي يشك في "تمام حفظ" الذكر الحكيم فله أن يستوهب نسخة من المصحف الكريم من مكتبة في إفريقية الغربية ويقابله بسماعه مشافهة من أحد الحفاظ في جاوا، ثم يقابله بما في المكتبات الكبيرة في العالم من المصاحف الأثرية التي كتبت في مختلف القرون منذ عهد سيدنا عثمان رضي الله عنه إلى يومنا هذا. فإذا وجد فيه فرقاً ولو في كلمة من الكلمات أو في حركة من الحركات فمن واجبه أن يطلع على الدنيا بهذا "الاكتشاف التاريخي المدهش".

وللمرتاب أن يرتاب في كون القرآن متزلاً من الله تعالى إن شاء، أما كون ما بأيدينا اليوم من القرآن هو عين القرآن بنصه وفضّه الذي أنزل على محمد ﷺ وأقرأه

الناس فهذه ظاهرة تاريخية لا مجال للشك والارتياب فيها. لا تجد شيئاً مما توارثته الدنيا في التاريخ البشري الطويل يكون على ما عليه القرآن من الثبوت القطعي المحتوم. ومن يشك في صحته فقد يشك أيضاً في ظهور الإمبراطورية الرومانية على الأرض المعمورة في عصر من عصور التاريخ، أو في الحكم المغولي في الهند قبل قرون، أو في وجود شخصية "نابليون" وإبداء الشك في ظواهر تاريخية كهذه ليس من خصائص العلم والمعرفة وإنما هو من أمارات الجهالة والغباوة.

## منهج لدراسة القرآن

إن القرآن كتاب يرد على منهله الفياض عدد لا يحصى من الناس لأجل عدد لا يحصى من الأغراض، لذلك يتعذر عليّ أن أقدم للدارس مقترحاتي في صدد دراسة للقرآن تستهدف تحقيق مطالب وأغراض هذا العدد الهائل من الواردين عليه. ولا يجذبني من هذه الكتل البشرية إلا الذين أشم فيهم رائحة الحرص على فهم هذا الكتاب ومعرفة مطالبه وتوجيهاته في شؤون الحياة الإنسانية ومسائلها المعقدة. فأحب أن أعرف هؤلاء منهجاً لدراسة القرآن، ثم أشاطرهم حل المشكلات والمصاعب التي يواجهها كل دارس بصفة عامة.

يجب - كخطوة أولى - على كل من يريد فهم القرآن، سواء آمن به أو لم يؤمن أن يخلي ذهنه ما أمكن من جميع ما استقر فيه من قبل من التصورات والنظريات، ويطهره من سائر ما يمكنه من الرغبات المولية أو المناوئة، ثم يكبّ على دراسته بقلب مفتوح وأذن واعية وقصد نزيه لفهمه. أما الذين يدرسونه واضعين طائفة من التصورات في أذهانهم مقدماً فما بين دفتيه إلا تصورات أنفسهم. ولا يجدون شيئاً من رائحة القرآن. ولا يصلح هذا المنهج لدراسة أي كتاب من الكتب، فكيف بالقرآن الذي لا يفتح كنوز معانيه أبداً للذين يدرسونه باتباع مثل هذا المنهج.

### منهج الدراسة التفصيلية الشاملة:

ثم إن الذي لا يريد من القرآن إلا معرفة إجمالية فعسى أن يكفيه دراسته مرة أو مرتين. أما الذي يريد أن يغوص في أعماقه، ويدرك أسرارها فلا يكفيه أن يدرسه أربع أو خمس مرات. وعليه أن يفزع إليه تكراراً ومراراً، ويُقبل على دراسته إقبالاً لا ملل فيه ولا كلل، وأن يدرسه كل مرة من وجهة جديدة، وأن يأخذ معه - كطالب من الطلبة - الأدوات اللازمة من الدفتر والقلم ليسجّل ما يعنّ له من نقاط هامة خلال الدراسة. والذين يرغبون في دراسته على نهج قويم كما قلنا، عليهم أن يستوعبوا قراءته في ختمتين لمجرد أن يلمع أمامهم نظامه للعقيدة ومنهجه العام الذي يفاصل الدنيا عليه. كما عليهم أن يحاولوا خلال الدراسة الأولية تحقيق النظرة الإجمالية في مشاهد القرآن العامة ويتبينوا التصورات الأصلية التي يقدمها للناس ومعالم نظام الحياة التي يبينها على أساس هذه التصورات. وفي خلال هذه الرحلة الممتعة إذا خطر في ذهنهم سؤال فلا يستعجلون البتّ في شأنه بل يقيّدونه في مذكرة، ويواصلون مطالعتهم ملتزمين جانب الصبر والجدّ، فهم سوف يعثرون غالباً على الجواب فيما يقبل من الصفحات. وإذا عثروا عليه قيّدوه كذلك



في المذكرة أمام السؤال. وإذا لم يظفروا بالجواب خلال الدراسة الأولية يستأنفون دراسته كحولة ثانية ويكون الصبر حليفهم والتأني دثارهم. وأقول بناء على تجاربي: لا يكون من سؤال إلا وتجدون جوابه، وما من معضلة إلا وتبلغون حلها في دراستكم العميقة الثانية. اللهم إلا في الندرة النادرة التي تتقاصر عنها أفهام الرجال.

هذا، وبعد تحقق النظر الإجمالي الشامل في القرآن على ما أشرنا، على الدارس، أن يبدأ بدراسة تفصيلية للقرآن. وفي هذا الصدد يجب عليه أن يثبت في قرارة ذهنه كل ناحية من تعاليم القرآن التي يمرّ بها أثناء الدراسة، فيحاول - مثلاً - أن يعرف ما هو المثل الإنساني الأعلى الذي يحبه القرآن، وما هو النموذج الإنساني الذي يكرهه ويغضه. وتحقيقاً لهذا المطلب يسجّل في مذكرته خصال "الإنسان المطلوب" في نظر القرآن في عمود، وخصال "الإنسان المرفوض" في نظره في عمود مماثل وجهاً لوجه. كما يحاول أن يعرف - كمثل آخر - موجبات نجاح الإنسان وسعادته حسب مقياس القرآن، والأسباب التي يعتبرها مبعث الهلاك والدمار ومدعاة الخسران والشقاء، وأصح طريقة لمعرفة هذا المطلب أيضاً، بأبعاده الشاسعة وتفصيله الشاملة، أن يقيم في مذكرته عمودين مماثلين: أحدهما لموجبات السعادة، والثاني لموجبات الخسران، ويسجل كل ما يصل إليه في هذا الموضوع. وقياساً على ذلك ينبغي له أن يقيد حسب ما ذكرنا جميع تعاليم القرآن الحكيم في كل مسألة من مسائل الحياة من العقائد والأخلاق والحقوق والواجبات، والاجتماع والمدنية، والاقتصاد والسياسة، والتشريع ونظام الجماعة، والحرب والمهادنة وما إلى ذلك، لكي يستبين على أي شكل تتكون كل شعبة من شعب الحياة، ثم على أي شكل تتكون الحياة الإسلامية بعد توحيد هذه الشعب وتكييفها في الإطار العام.

## منهج دراسة مسألة بعينها:

ثم إذا أراد الإنسان أن يتبين وجهة نظر القرآن في مسألة من مسائل الحياة فيستحسن له أن يطالع ما كتب فيها قديماً وحديثاً بكل إمعان، ويحدّد بوضوح ما لهذه المسألة من نواح أساسية ونقاط رئيسية، ويتعرف كذلك ما هو مبلغ تفكير الإنسان ومدى ما وصل إليه في هذه المسألة عبر التاريخ، وما هي جوانبها التي تتطلب حلولاً، وما هي النقطة التي لم يستطع التفكير الإنساني تخطيها حتى اليوم. وإذا حقق ذلك، فله أن يدرس القرآن واضعاً أمام عينيه الجوانب التي تتطلب الحلول في هذه المسألة. ومما جرّبته أن الإنسان إذا درس القرآن باحثاً في مسألة من المسائل على نحو ما ذكرت، فإنه يفاجأ بالردود على أسئلته في آيات قد قرأها عشرات المرات من قبل ولم يحظر بباله أن تلك الآيات تكمن فيها هذه الردود.

## شروط أساسية لدارس القرآن:

ومهما يتخذ الإنسان من التدابير ويستخدم من الوسائل لفهم القرآن فإنه لا يصل إلى جوهر القرآن وروحه كما ينبغي، ما دام هو لا يعمل وفق ما جاء به القرآن.

إن القرآن ليس يحوي نظريات مجردة وأفكاراً محضة حتى تدرسه جالساً على الأريكة ثم تفهم جميع مطالبه. كما أنه ليس بكتاب يبحث في اللاهوت فتحل جميع أسرار ومكوناته في المعاهد والزوايا. إن هذا الكتاب، كما قلنا في مستهل المقدمة كتاب دعوة وحرارة وبمجرد نزوله أخرج رجلاً وادعاه دماً، سليم الفطرة كريم الشيم ومحياً للسكوت، من زاوية الانعزال، وأوقفه في مواجهة العالم الذي كان قد انصرف عن الحق، وجعله يقارع الباطل ويحارب أئمة الكفر وقادة الفسق ورواد الضلال. إن هذا الكتاب انتزع كل روح سعيدة وكل نفس زكية. من كل بيت وجمعها تحت لواء صاحب الدعوة. إن هذا الكتاب أخرج غيظ كل فتن مفسد وجعله يقاتل أنصار الدعوة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

إن هذا الكتاب هو الذي قام بتوجيه الحركة الإسلامية الهائلة خلال مدة ثلاثة وعشرين سنة، والتي بدأت عملها من صرخة فرد واحد وانتهت في نهاية المطاف إلى إقامة الخلافة الإلهية في الأرض. وهذا الكتاب هو الذي تولى وضع مخططات الهدم ومشاريع البناء في كل مرحلة من المراحل وفي كل خطوة من الخطوات خلال المعركة الضارية بين الحق والباطل.

إذن فكيف يتأتى لك اليوم أن يتجلى لك جميع ما يضمه هذا الكتاب من أسرار وحقائق بمجرد أن تمر على حروفه وتنطق بكلماته، وبدون أن تنزل إلى ميدان الصراع بين الدين والكفر، وتغير قدميك في معركة الإسلام والجاهلية وبدون أن يصادفك المرور بمترل من منازل هذا الكفاح.

لا تستطيع أن تفهم مطالب القرآن ومعانيه البعيدة الغور إلا حين تحكّم هذا الكتاب وتبدأ بالدعوة إلى الله وتخطو جميع خطواتك كما يوجهك وكيفما يعلمك. ومن هنا لا بد أن يستقبلك جميع ما استقبل حامله من التجارب والحزن: تشاهد مشاهد مكة والحبيشة والطائف، وتواجه المراحل الممتدة من بدر إلى حنين إلى تبوك، وتشابك مع "أبي جهل" و "أبي لهب" وتلاقي المنافقين واليهود، وترى وتختبر كذلك كل النماذج الإنسانية ماراً بالسابقين الأولين إلى المؤلف قلوبهم. فهذا سلوك فريد لا يماثله أي نوع من السلوك، واسمه "السلوك القرآني" ومن شأنه أنه كلما مرتت بمترل من منازل تطالعك آيات وسور

من القرآن تحيطك علماً بأن هذا هو المهبط الذي نزلت فيه، وجاءت فيه بكذا من التوجيهات والتعاليم. وفي ذلك الحين لا يستبعد أن يغيب عن نظر "السالك" شيء من أسرار اللغة والبلاغة والمعاني والبيان. إلا أنه يستحيل أن يضمن القرآن بالكشف عن جوهره وروحه أمام ذلك "السالك".

ووفقاً لنفس المبدأ لا يستطيع الإنسان أن يدرك مغزى أحكام القرآن وتعاليمه الخلقية وتوجيهاته الاقتصادية والمدنية ومبادئه ونظمه في مختلف نواحي الحياة ما دام لا يطبقها في الحياة، ولا يدرك مغزاها فرد يعيش في حل منها في حياته الفردية ولا تدركه أمة تسلك جميع مؤسساتها الاجتماعية مسلكاً يخالف منهجها.

## القرآن كتاب هداية للبشرية كافة

وكل رجل، شريفاً كان أم وضعياً، يعلم أن القرآن أعلن أنه جاء لهداية النوع البشري بأكمله. ولكن إذا تناوله أحد ليدرسه يرى أنه لا يخاطب إلا من وجد من العرب حين نزوله. وإذا كان يدير وجهه أحياناً إلى كافة الناس فإن معظم ما يقول يرجع إلى ما يختص بدوق العرب وحدهم وبيئتهم وحدهم وتاريخهم وتقاليدهم وحدهم. والإنسان حين يرى ذلك يتساءل: إن كان الكتاب الذي أنزل لهداية كافة البشر لماذا يعنى عناية كبيرة بعناصر وقتية ومحلية وقومية؟ بل يقع بعض الذين يجهلون حقيقة الأمر في شك ويقولون: ربما نزل هذا الكتاب لاستصلاح من يعاصره من العرب ثم حمل فيما مالا يحتمله من دعوة عالمية وهداية لكافة الناس إلى الأبد.

وأقول للذي أثار هذا الاعتراض لا لمجرد الاعتراض، بل أراد معرفة الحقيقة ينبغي أن يدرس الكتاب ويخط تحت النصوص التي دعا فيها القرآن إلى عقيدة أو فكر أو تصور، أو عرض فيها مبدأ في الأخلاق أو قاعدة في الحياة العملية تختص بالعرب وحدهم، وتنحصر بحكم الزمان والمكان في حدود لا تتعداها!! أما مجرد كونه يخاطب أناساً عاشوا في زمان بعينه، ويتناول ما حولهم من الموجودات كمواد للاستشهاد يبي عليها دلائل التوحيد فهذا وحده لا يكفي لأن يحكم بأن دعوته كانت تختص بزمن دون الأزمان ونداءه كان موجهاً إلى قطر دون الأقطار. وبدلاً من ذلك ينبغي أن يتبين مثير الاعتراض أن الذي جاء به القرآن في رفضه لعقيدة الشرك يصدق على كل نوع من الشرك في الدنيا كما صدق على شرك العرب.

ألا يحسن بنا بعد ذلك أن نلجأ في استصلاح عقائد المشركين في كل عصر ومصر إلى نفس الدلائل والحجج التي جاء بها القرآن؟ ألا يجوز أن نستعمل أسلوب القرآن فيما يستدل به على إثبات التوحيد في كل زمان ومكان بعد تعديل يسير؟

إذا كان الجواب نعم فليس من مبرر للقول بأن دعوة القرآن الخالدة العالمية دعوة آنية ومحلية استناداً إلى أنها عرضت على قوم بأعينهم في زمن بعينه. وما من فلسفة أو نظام للحياة أو مذهب من المذاهب عرضت جميع تفصيلاته من الألف إلى الياء في أسلوب نظري محض [Abstract] ولم تتمثل في أوضاع واقعية أو صور حية.

هذا النوع من التجريد لا يمكن أن يوجد في عالم النظريات. وإن افترضنا وجوده فإن النظرية التي تعرض على هذه الصورة من التجريد لا تعدو حبراً على الورق ويستحيل أن تنساب في حياة الناس وتتحول إلى نظام عملي.

ثم إذا أريد تعميم حركة عقائدية وخلقية ومدنية على صعيد عالمي فلا يلزم لذلك أبداً أن تجعل الدعوة عالمية من البداية. بل المنهج الصحيح الوحيد لذلك هو أن تنشر الحركة ما تدعو إليه من عقائد ونظريات ومبادئ في البلد الذي نشأت فيه، وأن تقرها في أذهان أناس يعرف القائمون بالحركة لغتهم وطبيعتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وأن تطبقها في الحياة العملية وتقيم عليها نظاماً موفقاً للحياة ثم تعرضه على الدنيا كنموذج يحتذى به.

وبهذا الطريق وحده تلتفت إليها الأمم الأخرى ويستبق إليها أصحاب العقل الراجح والرأي السديد من تلك الأمم ليتلقوها ويسعوا لترويجها في بلادهم. وعلى هذا فمجرد عرض نظام ما للعقيدة والمنهج على أمة دون غيرها باديء ذي بدء وإن استنفذ هذا العرض كل طاقات التدليل والاحتجاج لإقناع تلك الأمة وتثبيتها - ليس دليلاً على كون ذلك النظام قومياً محضاً.

والخصائص التي تميز النظام القومي من النظام العالمي. والنظام الموقت من النظام الخالد، هي أن النظام القومي إما أن يدعو إلى تفضيل شعب على غيره ويطالب له بحقوق ومميزات خاصة، وإما أن يؤمن بمبادئ ونظريات لا تستطيع أن تربع وتزدهر في الشعوب الأخرى، وعلى العكس من ذلك فإن النظام العالمي يؤمن بالمساواة بين الناس ويعطي الجميع حقوقهم بدرجة متساوية، وتكون مبادئه عالمية الصبغة، عالمية الأهداف والمثل. ثم إن النظام الموقت يُنشئُ بناءه على قواعد تفقد قابليتها للعمل بمرور الأيام، بينما النظام الخالد تنطبق مبادئه على جميع الظروف المتطورة.

فهل من دارس للقرآن يدرسه واطعاً أمام عينيه الخصائص المشار إليها. ثم يستطيع أن يحدد لنا ما أخذ بيني عليها ظنه في كون النظام المعروض في كتاب الله نظاماً وقتياً وقومياً؟!

## القرآن كتاب مبادئ عامة

ومن الدارسين لهذا الكتاب من قد أُلقي في سمعه كذلك أن هذا الكتاب عبارة عن "مرشديات للتوجيهات التفصيلية" و "دليل للدستور". ثم إذا انصرف إلى قراءته لا يجد فيه أحكاماً وأنظمة تفصيلية عن الاجتماع والمدنية والسياسية والاقتصاد وما إلى ذلك. بل أن الواجبات الهامة كالصلاة والزكاة التي يعيد الكتاب ذكرها ويؤكد عليها بشدة لم يدون لها أحكام تفصيلية. ومثل هذا الأمر يشوش ذهنه ويدفعه إلى التساؤل: ما هو المراد من كونه مرشداً للتعاليم الإلهية.

وكل ما ينشأ هنا من تشويش في ذهن الإنسان مرده أن يغيب عن باله إحدى نواحي الحقيقة، وهي أن الله لم يتزل الكتاب فقط، بل أرسل معه رسوله أيضاً. وأقول على سبيل التمثيل: إذا كان المشروع المقصود هو وضع تصميم لبناء وتقديمه للناس لينشئوا البناء وفق هذا التصميم. ففي هذه الصورة لا بد لنا من تخطيط مطول يرشدنا إلى كل جزء من أجزاء البناء. أما إذا ولي أحد المهندسين من قبل الحكومة ومعه التوجيهات المعمارية العامة، فإن هذا المهندس يشيد البناء وفق هذه التوجيهات، ومن الخطأ - إذن - أن نصرف أعيننا عن المهندس وما شيده من البناء، ثم ننشد تفصيلات الجزئيات في التصميم ونشكو نقصه إن لم نجد لها فيه.

وكذلك القرآن، ليس هو بكتاب الجزئيات، بل هو كتاب المبادئ والقواعد الكلية. ومهمته الحقيقية أن يعرض الأسس الفكرية والخلقية للنظام الإسلامي بوضوح ثم يثبتها تثبيتاً قوياً بكلا الطريقتين: التدليل العقلي والتحريض العاطفي. أما ما يتعلق بالصورة العملية للحياة الإسلامية فإنه لا يرشد الإنسان إليها بوضع قوانين وأنظمة تفصيلية عن كل ناحية من نواحي الحياة، بل إنه حدّد الحدود الأساسية لكل شعبة من شعب الحياة، ونصب معالم جلية في بعض النواحي تشير إلى خطوط عريضة يجب أن تؤسس عليها هذه النواحي وفق مرضاة الله.

## حول الخلاف في تفسير القرآن

وكان من مهمة النبي ﷺ تكيف الحياة الإسلامية في ضوء هذه التعاليم. ولم يبعث ﷺ إلا ليحقق نموذجاً من السلوك الفردي ومن المجتمع والدولة يكون ترجمة حية تتمثل فيها المبادئ التي قررها القرآن.

وهنا سؤال آخر يخالج أذهان الناس: القرآن أنحى باللائمة على الذين اختلفوا بعد أن جاءهم الهدى من الله تعالى، وتفرقوا في الدين. هذا في جانب، وفي الجانب الآخر توجد خلافات في تفسير أحكام القرآن وتأويلها لا بين المتأخرين فحسب، بل بين التابعين ومن تبعهم حتى بين الصحابة أنفسهم، إلى درجة أنك لا تجد آية من آيات القرآن اتفق المفسرون على قول واحد في تفسيرها. أليس هؤلاء الناس يستحقون نفس اللوم الذي ورد في القرآن؟ إذا كان الجواب لا، فأى اختلاف وأي فرقة تلك التي ينكرها القرآن وينحي باللائمة على أصحابها.

هذه قضية متشعبة كثيرة الجوانب لا يجدر بنا في هذا المقام أن نتناولها بالبحث المبسط. وحالاً لما يساور ذهن عامة الناس من التعقيد يكفي الإشارة إلى أن القرآن لا يمنع الخلاف التزيه البناء الذي يقع بين القائمين على تفسير الأحكام والقوانين، بناء على دراساتهم الجديّة المخلصة، بينما هم يلتقون فيما يرجع إلى أصل الدين ويتفقون فيما يتعلق بنظام الجماعة الإسلامية.

أما الخلاف الذي يذمه القرآن فهو الذي نشأ من نفوس ذات هوى وعقول معوجة، وأهمى به المطاف إلى التكتل والطائفية الممقوتة والتزاع الداخلي.

وهذان الخلافان لا يتجانسان في أصلهما ولا يتشابهان في نتائجهما فكيف نحكم عليهما بحكم واحد.

أما الخلاف من النوع الأول فهو جوهر الرقي والتطور ومصدر الحياة ونضارتها. ولا بد من أن يوجد في كل مجتمع مكون من أهل الرأي والفكر.

ووجوده دليل الحياة والحيوية، ولا يخلو منه إلا مجتمع يتكون من أناس لا يتمتعون برجاحة العقل ووفرة الذكاء بل هم تماثيل خشبية ودمى لا حياة فيها.

وأما الخلاف من النوع الثاني فيعلم جميع أهل الأرض أنه ما ظهر في كتلة بشرية إلا ومزقتها شرمزق وحطمها أشنع تحطيم.

فظهره من أمارات المرض لا من بشائر الصحة، ولم تكسب أمة من الأمم إلا نتائج وخيمة وعواقب مؤلمة.

ويتجلى ما بين هذين النوعين من الخلاف من فروق في الصورتين التاليتين:

### في الصورة الأولى:

يُجمع جميع الناس على طاعة الله ورسوله، ويعتقدون في الكتاب والسنة مصدرين للأحكام والتشريعات. ثم يختلف إمامان من أئمة الاجتهاد في تحقيق إحدى المسائل الفرعية أو قاضيان في فصل إحدى الدعاوى. ولا يجعل أحدهما المسألة التي اختلف فيها أو الرأي الذي يراه عماداً للدين، ولا يعتبر الذي يخالفه في ذلك خارجاً عن دائرة الدين.

بل كلاهما يشبع رأيه بما عنده من الدلائل والمراجع إلى أقصى ما يستطيع ثم يتركه للرأي العام إن كان رأيه يتعلق بمصالحه. والقضاء العالي في البلاد إن كان الموضوع يرجع إلى التحكيم، ولنظام الجماعة الإسلامية إن كانت القضية قضية اجتماعية، فيقبل رأي أحدهما أو كليهما.

### وفي الصورة الأخرى:

يجري الخلاف حتى في أسس الدين، أو يختار عالم أو متصوف أو مفت أو مجادل أو زعيم رأياً في مسألة لم يجعلها الله ورسوله من مسائل الدين الأساسية، ثم يجعله بتأويلات بعيدة من المسائل الأساسية للدين، ويحكم على كل من يخالفه في ذلك بخروجه عن دائرة الإسلام، ويشكل من أنصاره عصابة ويقول إن هذه هي أمة مسلمة أصيلة ومن شذ عنها شذ في النار، وينادي صارخاً: "عليك الانضمام إلى هذه العصابة إن كنت مسلماً وإلا فلست بمسلم".

والقرآن حينما يذم الاختلاف والتكتل والطائفية والعصبية يذم الصورة الثانية. أما الخلاف في الصورة الأولى فنجد له أمثلة عديدة حتى في عهد النبي ﷺ وأنه ﷺ لم يقره فقط بل استحسنته.



لأن هذا الخلاف كان يبشر بوجود طاقات وكفاءات من التفكير والتأمل والتحقيق والتحري والتحسس والفهم والفقہ في كيان الجماعة الإسلامية. وكان يدل على أن أصحاب الرأي والكفاءة في الجماعة يولون اهتمامهم الكبير للدين وأحكامه. وإن كفاءاتهم لا تتلمس حلولاً لمسائل الحياة من خارج الدين بل تتلمسها في داخله. وإن الجماعة بجملتها تأخذ بمبدأ جديد بأن يكتب بالتبر بدل الحبر: وهو الالتقاء على مبادئ الدين لكي تحافظ على وحدتها، ثم إعطاء أهل العلم وقادة الرأي حريتهم في الاجتهاد والاستنباط والتحقيق في حدود سليمة لكي توفر لنفسها فرص التطور وجوانب التقدم.

هذا ما عندي، والعلم عند الله، عليه توكلت وإليه أنيب

منبر التوحيد والجهاد

[www.tawhed.ws](http://www.tawhed.ws)  
[www.almaqdese.com](http://www.almaqdese.com)  
[www.alsunnah.info](http://www.alsunnah.info)

## هذه دعوتنا

- دعوة إلى الهجرة إلى الله بتجريد التوحيد، والبراءة من الشرك والتنديد، والهجرة إلى رسوله ﷺ بتجريد المتابعة له.
  - دعوة إلى إظهار التوحيد، بإعلان أوثق عرى الإيمان، والصدع بملة الخليلين محمد وإبراهيم عليهما السلام، وإظهار موالاتة التوحيد وأهله، وإبداء البراءة من الشرك وأهله.
  - دعوة إلى تحقيق التوحيد بجهد الطواغيت كل الطواغيت باللسان والسنان، لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور المناهج والقوانين والأديان إلى عدل ونور الإسلام.
  - دعوة إلى طلب العلم الشرعي من معينه الصافي، وكسر صنمى علماء الحكومات، بنقد تقليد الأحرار والرهبان الذين أفسدوا الدين، ولبسوا على المسلمين.
- وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها
- دعوة إلى البصيرة في الواقع، وإلى استبانة سبيل المجرمين، كل المجرمين على اختلاف مللهم ونحلهم {قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين}.
  - دعوة إلى الإعداد الجاد على كافة الأصعدة للجهاد في سبيل الله، والسعي في قتال الطواغيت وأنصارهم واليهود وأحلافهم لتحرير المسلمين وديارهم من قيد أسرهم واحتلالهم.
  - ودعوة إلى اللحاق بركب الطائفة الظاهرة القائمة بدين الله، الذين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله.

منبر التوحيد والجهاد

[www.alsunnah.info](http://www.alsunnah.info)

[www.tawhed.ws](http://www.tawhed.ws)

[www.almaqdese.com](http://www.almaqdese.com)